قصة الكتاب الذي فاز على كل كتب العالم

بقلم: عبد التواب يوسف
مصر

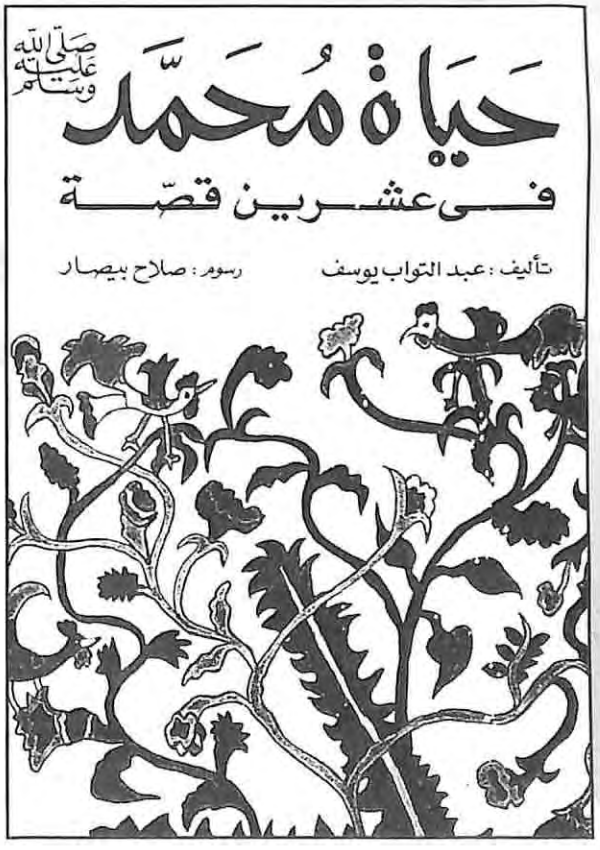

دخل عليّ أبي – وكنت في السادسة عشرة من عمري، ووجدني منهمكاً في الكتابة سألني...

– ماذا تكتب؟

– أريد أن أضع كتاباً عن زعماء الحرية في العالم..

– من يكون هؤلاء؟

– فولتير، جان جاك روسو، واشنجتن، لنكولن...

قال: أكتب عن سيدنا محمد..

قلت: ماذا أكتب عنه، والناس تعرف عنه كل شيء؟

نظر إليّ في صمت، وقد أطل حزن عميق من عينيه، وقال..

–اكتب عنه زعيماً للحرية، و..

وألقى عليّ محاضرة طويلة، حاولت خلالها أن أبدو مستمعاً مهذباً، بينما سرحت بخيالي بعيداً، وكان أذكى من أن يفوته هذا، لذلك سارع ينهي حديثه، ويقول في غضب..

– إنك لن تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وغادرني عابساً..

ونسيت هذه الحكاية، تماماً، ولسنوات امتدت قرابة ربع القرن، كتبت خلالها الكثير.

-١-

اقترب يوم ذكرى «مولد النبي» ﷺ .. و«أبله فضيلة» مذيعة برامج الأطفال في حيرة.. ما الذي يمكن أن تقدمه

بهذه المناسبة الجميلة والجليلة؟!.. فجأة دخلت إليها محيياً: صباح الخير.. قالت في سرعة وجدية كاملة:

– لماذا لا تكتب لنا برنامجا دينيا في مناسبة «مولد النبي»؟ كتاباتك الوطنية رائعة، جرب أن تكتب عملاً إسلامياً..

قلت لها: علماء الدين عندنا متشددون وأخشى أن نقع في خطأ ما، يحاسبوننا عليه حساباً عسيراً..

عقبت معترضة: ولماذا تخطئ؟!..

قلت: كان أبي شيخاً معمماً، وعلمني الكثير، لكن..

قالت: وأبي أيضاً كان من علماء الدين.. وجدير بنا أن نعلمه للأطفال بحب..

وعدت يومها إلى البيت وأنا أدير الفكرة في رأسي، خاصة أنها قد أنهت إليّ أن لدينا قسماً أو إدارة خاصة، تراجع المواد الدينية، الأمر الذي شجعني أن أجرب قلمي في هذا اللون الذي لم يسبق لنا أن حاولناه..

امتدت يدي إلى بعض كتب السيرة المعطرة، وتذكرت أني قد سبق لي أن كتبت عنها ومنها للكبار، وبدأت أقرأ.. وعندما وصلت إلى الفيل وأبرهة تنبهت إلى هذا الحيوان وكيف روى لنا معلمنا حكايته ونحن أطفال، ورأيت أن أروي قصة المولد الشريف على لسانه، ووضعت على الورق..

– «أنا فيل»..

كانت هذه أول عبارة في هذا البرنامج – والكتاب من بعده – ثم واصلت الكتابة..

لقد عشت في الحبشة، ثم عبرت البحر الأحمر إلى اليمن.. و.. رويت القصة، ولم أغفل عن القول بأن قدميه قد ثبتتا في الأرض عندما اقترب جيش أبرهة من مكة، ولم يستطع قط أن يمضي تجاهها، وإذا مضوا به بعيداً عنها انطلق.. وانتهت الحكاية بالطير الأبابيل، ترمي بحجارة من سجيل، لتجعل جيش أبرهة كالعصف المأكول..

وحملت أوراقي إلى «أبله فضيلة» التي قرأتها على عجل، وهتفت:

– الله..

وبعثت بالقصة إلى الشؤون الدينية ليقرأها المرحوم كامل البوهي وإذا به يكتب تقريراً ضافياً، يمتدح العمل، ويقرر أنه بالغ الجمال، ويسألنا في نهايته أن نكثر من هذا اللون البديع من الكتابة الدينية.

وأذيع العمل، وكان صداه طيباً..

-٢-

تشجعنا، ولم نعد نخاف تشدد علماء الدين، أو نخشى هراوتهم الغليظة.. من ورائنا من يقول لنا: «أحسنتم».. وعندما نسأل الأطفال عن مثل هذا البرنامج نحس بتجاوب كبير منهم، ونفرح له ونبتهج.. وبدأنا في المناسبات نقدم برامج من هذا اللون.. رويت الهجرة على لسان الناقة التي حملت الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وروينا يوم ٢٧ رجب حكاية الإسراء والمعراج على لسان البراق، وأيضاً على لسان العنكبوت والحمامة.. وحكينا على لسان عنقود عنب ما جرى للنبي الكريم ﷺ في الطائف.. وتمادينا، فتحدثت بئر بدر، وتحدث جبل أحد، والخندق عن الغزوات.. وفي كل مرة كان الصدى طيبا وجميلاً.

وذات يوم، جمعت هذه القصص، وقد تجاوز عددها خمس عشرة قصة يومها وأعدت صياغتها بالفصحى، وأضفت إليها خمسا أخرى، ووضعت لها عنواناً «حياة محمد ﷺ وسلم في عشرين قصة» وكانت جمعية ثقافة الأطفال قد قامت بمبادرة مني. وتعرفنا على المرحوم الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف والشؤون الدينية، وعرضت عليه الفكرة، فطلب أن يقرأ الكتاب.

وكانت الفكرة قد انتشرت بين الأصدقاء، وحذرني بعضهم ونبهني إلى أن الكثيرين لن يروق لهم مثل هذا العمل، وعندما كنت أقول لهم إن الإذاعة قدمته يعقب قائلاً..

– علماء الدين لا يستمعون إليها..

– لقد أجازتها الشؤون الدينية..

– ولو.. عندما تصبح كتابا سوف ينهالون عليك ويتناولونك بالهراوة التي تخشاها..

عندما وضعت مخطوط الكتاب بين يدي الدكتور عبد العزيز قلت لنفسي: إنني سأرتضيه حكَماً.. وبعد أيام دعاني إليه، وساعة أن دخلت عليه سألني سؤالا غريباً.. وأنا متلهف لرأيه..

– هل سيارتك معك؟

– نعم، لكن ما علاقة هذا بـ..

قال: خذ كتابك هذا واذهب إلى مجمع البحوث الإسلامية، ستجد هناك عالماً جليلاً يرأسه، هو الشيخ

الدكتور عبد الحليم محمود.. وسيدور بينكما الحوار التالي، تقول له: أرجو مراجعة هذا المخطوط وإجازته للنشر.. سيقول لك: ألا يكفي أن وزير الأوقاف والشؤون الدينية قد كتب له مقدمة؟!.. قل له: غدا لن يكون وزيراً، لابد من ختم الأزهر الشريف على صفحاته صفحة صفحة!

التقطت عبارة من كلماته، وسألت في ذهول: هل كتبت له مقدمة؟..

أجاب: نعم.. أنت غير متنبه إلى أنك أتيت بشيء رائع.. إنه فتح مبين سيثيبك الله عليه كثيراً ولكن لن تأمن من بعض الألسنة والأقلام.. دعك منهم.. واعرض الرسوم أيضاً على الأزهر الشريف.

مازالت هذه الكلمات الطيبات ترن في أذني بصوته الجلي الواضح وكانت بشرى طيبة من ذلك الرجل العالم الجليل.

-٣-

حملت الكتاب إلى فضيلة الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود..

لقد استقبلني في لطف ومودة، وابتسم في طيبة وأنا أنقل إليه كلمات د. عبد العزيز كامل.. وبعد عدة أسابيع أعادوا إليّ مخطوط الكتاب، وعليه ختم الأزهر الشريف، في كل صفحاته.. وأيضاً توقيع الشيخ الجليل بالموافقة على نشره.. وعندها فقط دفعت به إلى المرحوم الأستاذ محمد المعلم، وهو بصدد إنشاء دار الشروق في بيروت، بعد أن تعثرت الدار التي سبق له أن أقامها في القاهرة تحت اسم «دار القلم».. وعهد بالكتاب إلى الفنان المبدع «عبد الحليم البرجيني» لكي يرسمه، ليصبح أول كتاب إسلامي للأطفال، يتضمن لوحات ملونة، عرضت هي أيضاً على مجمع البحوث الإسلامية وأبدى عليها بعض الملاحظات، تقبلها الفنان في رحابة صدر، اللهم إلا رغبتهم في إلغاء كفين مرفوعتين إلى السماء، خشية أن يتصورهما الأطفال على أنها كفا الرسول، وأزعجني الفنان بعدم استجابته لهذا المطلب، وفي ذكاء أضاف إلى اليدين شيئاً عصرياً: كمين لقميص، يحملان أزراراً عصرية.. ورضوا عن ذلك في ابتسامة عريضة.

حمل الأستاذ محمد المعلم الكتاب، إلى بيروت بعد أن عهد إلى كثيرين بإعادة قراءته.. كان يدقق في كل شيء، وعلى الرغم من أن المراجعين زادوا على العشرة، فإنني وقعت في خطأ كبير، وجل من لا يسهو..

اكتشفت طفلة صغيرة هذا الخطأ بعد سنوات طويلة من صدوره.. ذلك أنني خلال سرد قصة «عنقود العنب» ولجوء الرسول ص إلى الطائف، قلت: إنه عاد إلى مكة ليروي للسيدة خديجة ما حدث.. ونبهتني الطفلة بعد طبع الكتاب إلى أن السيدة خديجة كانت قد لقيت ربها قبل الحدث، وبالطبع تم حذف هذا السطر من الكتاب..

وعندما صدر الكتاب كان استقباله أكثر من رائع، وكان عليه إقبال كبير، مع أنه كان مرتفع الثمن إلى حد كبير: الغلاف مقوى، والألوان في كل الصفحات بهيجة وجميلة، والحروف كبيرة وواضحة، واقتنت الكتاب كل البلدان العربية والإسلامية، ولقي تقريظاً كبيراً، ووصلتني ترجمة لقصصه باللغتين الفارسية والأردية.. ونفدت عشرون ألف نسخة منه خلال فترة وجيزة، ولم تتح لنا فرصة إعادة طباعته على هذه الصورة الجميلة الأنيقة، لسبب أو لآخر، لكن طبعتين شعبيتين صدرتا من بعد ذلك.. ثم كانت هناك مفاجأة كبيرة..

قرأ المسؤولون بوزارة التربية الكتاب، ولقي منهم الرضا، وقرروا أن يكون بين أيدي تلاميذ الصف السادس الابتدائي، ورأيت أن نكتفي بعشر من قصصه، لأنهم سيختبرون فيها..وراحوا يطبعونه عاماً بعد عام لسبع سنوات، حتى تجاوز المطبوع منه ٧ ملايين نسخة.. تقاضيت عليها مائة جنيه.. ويصعق الناشرون الأجانب حين يسمعون بهذا، ويظنون أنني قد أصبحت من ورائه مليونيراً.. وكنت أسعد من أي مليونير بهذا العدد الضخم من النسخ، فقد كنت تلميذاً فقيراً لا أقدر على اقتناء الكتب!

-٤-

وأبدى الصديق الناشر – إبراهيم المعلم – نجل الأستاذ محمد المعلم رغبته في أن يعيد نشر الكتاب، على أن يرسم من جديد، ورحبت بذلك.. لكم سعدت بأن يعاود الظهور بعد كل هذه السنوات الطويلة، من أجل أن يصبح «كلاسيكية»، وتعني الكتاب الذي تقرؤه عدة أجيال متعاقبة، ويصدر في عديد من الطبعات، دون أن نغيّر منه كلمة واحدة.. وعهد به إلى الفنان صلاح بيصار.. الذي أتقن رسومه كل الإتقان.. وأضاف الناشر الكبير هذه العبارات على ظهر الغلاف الأخير..

[حياة محمدة ﷺ في عشرين قصة
كتاب فريد في المكتبة العربية.. والإسلامية

فريد في فكرته.. وفي أسلوبه.. وفي تناوله.. وفي رسومه

من خلال عشرين قصة تجري على ألسنة المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان، استطاع المؤلف الموهوب عبد التواب يوسف أن يأخذنا في رحلة ممتعة لإلقاء الضوء على جوانب من النبع الصافي المتجدد لسيرة الرسول الكريم ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

وليصبح هذا الكتاب علامة بارزة في مسيرة كاتبه الحافلة بالعطاء لجيلنا الجديد تثقيفاً وإمتاعاً.

«إبراهيم المعلم»

وكانت مفاجأة رائعة لي أن أنال في ختام عقد التسعينيات، وآخر الألفية الثانية، جائزة خاصة من السيدة سوزان مبارك..

ونالت أيضاً دار الشروق الجائزة الأولى في النشر لكتب الأطفال، قيمة كل من الجائزتين عشرة آلاف جنيه، مع شهادة تقدير، ونال الفنان الرسام جائزة ثانية على رسومه البديعة..

وتلقينا التهاني.. شاكرين للمهنئين ولصاحبة الجائزة.

لكن مفاجأة أكبر كانت تنتظرنا على الطريق.. وذلك من خلال «معرض بولونيا» لكتب الأطفال، وأضخم معارضها على الإطلاق عالمياً..

لقد فاز كتاب (حياة محمد «ﷺ» في عشرين قصة) بالجائزة الأولى، من بين ١٤٠٠ كتاب، تقدمت بها ثلاثون دولة..

تمتمت شفاهنا:

– «الحمد لله»

وتساءل كثيرون: كيف تأتّى له هذا؟

وأتذكر عبارة الدكتور عبد العزيز كامل..

– إنه فتح مبين..

نعم..

هو فتح مبين، أن يفوز كتاب عن الرسول عليه الصلاة والسلام من عاصمة كتب الأطفال العالمية: بولونيا ٢٠٠٠

شكراً لكل من قرأه وقدّره حق قدره

وبعد...

بعد نصف قرن من رحيل أبي – رحمه الله – يدوّي هذا النبأ الرائع في كل أرجاء الدنيا.. وكنت قد تذكرت نصيحته لي أن أكتب عن سيدنا محمد ﷺ بعد صدور كتابي هذا: (حياة محمد «ﷺ» في عشرين قصة)،

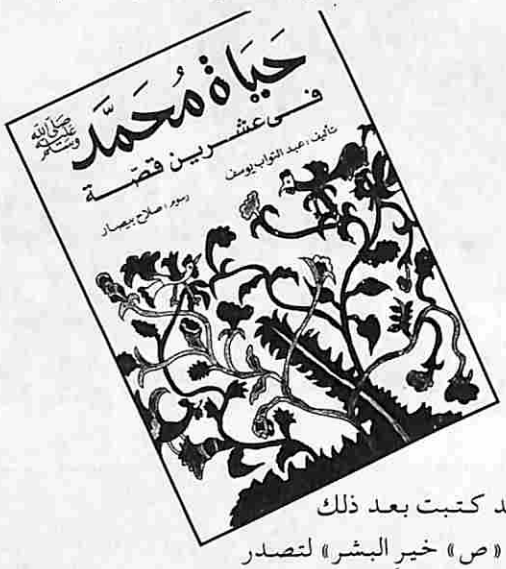

وكنت قد كتبت بعد ذلك «محمد «ص» خير البشر» لتصدر في خمسة عشر كتاباً، تحدثت فيها عن الرسول الكريم: إنساناً. وعدت إليه ﷺ وسلم مرات ومرات، وكتبت عنه للكبار والمعلمين: «محمد (ﷺ): معلماً مربياً».. وعنّ لي أن أضع سيرة ذاتية للرسول الكريم، وجعلتها بعنوان «محمد ﷺ يتحدث عن حياته» أما الكتاب الأول، فأضفت خمس قصص أخرى على ألسنة: الدابة التي أهداها إليه المقوقس عظيم القبط في مصر، والقطة التي استكانت ونامت على كم ثوبه، وعلى لسان الغزالة الذهبية، التي عثر عليها أثناء إعادة حفر زمزم، وأيضاً تحدث عنه سيفه الموجود في ضريح الحسين رضي الله عنه في مصر، وأخيراً تحدثت عنه مرآته ﷺ.. ثم أضفت كتاباً جميلاً عن «طفولة النبي ﷺ للأطفال» طبع عدة طبعات، ومنحته منظمة الثقافة العربية في تونس جائزتها عام ١٩٩١م، وأتذكر عبارة أبي رحمه الله، وما قاله الدكتور عبد العزيز كامل:

[ظلت سيرة الرسول «ﷺ» وستظل بإذن الله منبعاً صافياً يقصده الدارسون على تعدد خطوط اقترابهم، يأخذ كل منهم من النبع الكريم ما يرويه، وحينما نقصد هذا النبع سنجد على شاطئه علماء وفلاسفة وأدباء، وكلهم من رسول الله «ﷺ» ملتمس.

والأخ الصديق الأستاذ عبد التواب يوسف أحد الذين تلقاهم على هذا الشط المطهر.]

---

* «جعل الأستاذ عبد التواب يوسف من كتابه «حياة محمد في عشرين قصة» معبراً بين السيرة والأجيال الجديدة من أبنائنا، إنه يأخذ من المعين الصافي ويضع هذا الماء في أكواب صغيرة جميلة، ويقدمها مع ابتسامة رقيقة هادئة إلى أبنائنا. إن كتابة السيرة بهذا الأسلوب السهل الممتنع فتح في تقريبها إلى أبنائنا».

د. عبد العزيز كامل وزير الأوقاف وشؤون الأزهر الأسبق ١٩٦٩م.